

الإخلاص

حقيقة الإخلاص التبرّي عن كلّ ما دون الله وَعَلَىٰ.

وأنت حين تخلص القصد لله إنما تُخلص عملك عن كلّ ما يشوبه من شركٍ أو رياء.. ومهما عظم العمل في أعين الناس لا يمكن أن يُقبل عند الله إلا بالإخلاص له. ولا يُحبطُ العمل إلا شركٌ يدخل فيه أو رياءٌ يتعلق به ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَإِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١)

وأصلُ الحَبَطِ من الحَبَطِ: وهو أن تُكثِرَ الدابةُ أكلًا حتى يبتفخ بطنها، فلا هي انتفعت ولا هي سلمت. وكذلك كلُّ عملٍ لا يرجو فاعله لقاء ربّه ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٢)، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (٣)، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿٤﴾﴾ (٤)

(١) الزمر: ٦٥.

(٢) الكهف: من الآية ١١٠.

(٣) البقرة: من الآية ٥.

(٤) الزمر: ١١ - ١٤.

وعندما تأمل حقيقة الإخلاص في شخص رسول الله ﷺ نراه بيّناً في حياته كلها. ففي كل عمل من أعماله برهان عليه، وفي كل موقف من مواقفه لا نرى إلا ذكر الله وابتغاء مرضاته؛ يُخضع كل شيء لطاعة ربه، ويتوجه بكل عمل لله رب العالمين لا شريك له ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك له^(١) ﴿ وَإِنَّا أَوْلُ الْمَسْإِئِنِ ﴾^(٢) ﴿

يعلمنا الرسول ﷺ أن الإخلاص لا بُدَّ أن يتحقق في الأعمال وأن يُرى في السلوك، فهو ليس بمعزل عن حركة الحياة المتجددة بل هو منها كالروح من الجسد، لا تتحقق حياة إلا به، ولا ينال أجرٌ ولا يُتقبل عمل ولا تتحقق نجاهٌ ولا يرتفع شأن إلا بالإخلاص لله وحده لا شريك له.

وفي حديث سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه قول الرسول ﷺ: « إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجَهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي. قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا إِلَّا ارْتَدَّتْ بِهِ دَرَجَةٌ وَرَفَعَةٌ »^(٣)

أخي القارئ: كم من أناس حسبهم العذر عن تحقيق نياهم الطيبة فناهم الأجر. عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حِسْبَهُمُ الْمَرَضُ »^(٣)

وفي رواية أخرى لمسلم: « إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ »

(١) الأعمام : ١٦٢-١٦٣.

(٢) رواد البخاري.

(٣) رواد مسلم.

كان خلقه القرآن

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزاة فقال: « إن أقوامًا بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه. حسبهم العذر » (١)



وتلك ثمرة الإخلاص وهذه نتيجته..

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فأنحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالًا عملتموها لله صالحًا، فادعوا الله بها؛ لعله يفرجها.

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار كنت أرعى عليهن، فإذا رحت عليهن فحلبت بدأت بوالدي، أسقيهما قبل ولدي، وإنه ناء بي الشجر فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتُهُما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقممت عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون (٢) عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهن حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة تروى منها السماء. ففرج الله لهم فرجة حتى يروى منها السماء.

وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار، فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجلين قالت: يا عبد الله، اتق الله ولا تفتح

(١) رواد البخاري.

(٢) أي يصبحون من الجوع.

الْخَاتِمَ. فَقُمْتُ عَنْهَا. اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا، فَفَرِّجْ لَهُمْ فُرْجَةً.

وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أُرْرُ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَقَّهُ فَتَرَكَهُ وَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أُرْزَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقْرًا وَرَاعِيَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَظْلِمْنِي، وَأَعْطِنِي حَقِّي. فَقُلْتُ: أَذْهَبُ إِلَى ذَلِكَ الْبَقْرِ وَرَاعِيَهَا. فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَهْزَأْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَهْزَأُ بِكَ، فَخُذْ ذَلِكَ الْبَقْرَ وَرَاعِيَهَا، فَأَخِذْهُ فَاطْلُقْ بِهَا. فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ.. فَفَرِّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ» (١)

أيها القارئ الكريم:

أود أن تلاحظ معي الحالة النفسية لهؤلاء النفر الذين أوامهم المبيت إلى غارٍ وانحدرت صخرة من جبلٍ فسَدَّتْ عليهم الغار. إنما حالة مكروب يلتمس المخرج، ويتحسس مواطن النجاة، ويبحث - في نفسه وفيمن حوله - عن سبب من الأسباب يرفع عُقْمَهُ ويفرِّجُ كُرْبَتَهُ، فلم يجدوا جميعاً إلا باباً واحداً، هو بابُ العمل الذي قُصِدَ به وجهُ الله ﷻ.

والرسول ﷺ وهو الصادق الأمين عندما يذكر لنا شأن هؤلاء إنما يقصد فيما يقصد أن يُرِينَا ثَمْرَةَ الْإِخْلَاصِ وَنَتِيجَتَهُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ. وإذا كان هذا البيان النبوي حديثاً عن أناسٍ أخلصوا في مواقف معينة في الرخاء، ونالوا ثَمْرَةَ ذَلِكَ فِي الشَّدَةِ، فإنه يرتكن إلى قاعدة أصيلة تتحقق في صور عملية من حياة الناس وأحوالهم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢)

(١) متفق عليه، وهذه رواية البخاري.

(٢) الطلاق: من الآية ٢.

كان خلقه القرآن

قدّم الشرط نجد الجزاء. قدّم التقوى نجد المخرج من الضيق والتفريج من الكربة، ورسولنا ﷺ - وقد كان خلقه القرآن - هو القدوة في ذلك كله. لأنه لم يكن في جميع أحواله إلا عبداً لله يدعو به ويدعو إلى سبيله. وبممكنك أن تراه وهو في الغار وصاحبه يخشى أن تناله أيدي النفوس المتآمرة على قتله، فلا تسمع من الرسول ﷺ إلا قولَ الواثق المطمئن بذكر ربه ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾^(١)

أخي القارئ:

اجعل عملك خالصاً لوجه الله وترقب النتائج. ومن أولى النتائج وأسرعها سرور النفس - وطمأنينة القلب، وما تحققه الثقة في الله - الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء من اعتدال نفسي واثق مطمئن شاكر صابر، يتحقق به الخير للإنسان وهو يواجه ظروف الحياة المتباينة ولا يكون ذلك إلا للمؤمن.

عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنْ أَمَرَهُ كُلُّهُ خَيْرًا، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢)

نود أن نجلس بين يدي رسول الله ﷺ نستمع إلى إجابته وهو يُسأل من بعض صحابته - رضوان الله عليهم - ومن أسئلتهم تدرك مدى الحرص على مرضاة الله،

(١) النوبة : ٤٠ .

(٢) رواه مسلم .

ومن إجابته ﷺ ترى كيف كان القرآن الكريم خلقاً له يصدر في كل أمره عن هذا الأصل الجامع لأخلاقه ﷺ.

وإذا كنا من قبل قد لمسنا ما يحققه الإخلاص في حياة الناس من نتائج، فلن يصعب علينا أن نعرف ما يكون عليه حال الناس وقد غاب الإخلاص عن حياتهم وانتفى من أعمالهم.

وخرج النسائي من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرايت رجلاً غزاً يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: لا شيء له، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: لا شيء له. ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»^(١)

وخرج أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: «قلت يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والعزوة. فقال: يا عبد الله بن عمرو إن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرئياً مكاثراً بعثك الله مرئياً مكاثراً. يا عبد الله بن عمرو، على أي حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال»^(٢)

وخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت

(١) رواه النسائي.

(٢) رواه أبو داود.

كان خلقه القرآن

فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَةً فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌّ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» (١)

وفي الحديث أن معاوية لما بلغه هذا الحديث بكى حتى غشي عليه، فلما أفاق قال: صدق الله ورسوله، قال الله ﷻ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (٢)

أخي القاري:

احذر أن يكون عملك لغير الله، وصحح النية دائماً؛ حتى تجعل حظَّ نفسك في مرضاة ربِّك. يقول سهل بن عبد الله: «ليس على النفس شيء أشقَّ من الإخلاص؛ لأنه ليس له فيها نصيب»، وقال يوسف بن الحسين الرازي: «أعزَّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه ينبت فيه على لون آخر».

عاون نفسك، واستعن بربك في تصحيح نيتك، وسلها - دائماً - لماذا أفعلُ هذا؟ ولماذا أتركه؟ فإن كان لله فامض، وراقب النفس مستعيناً بذكر الله؛ حتى لا يدخل الشيطان من باب الطاعة، فتذكرُ عَمَلِكَ وتنسى فضلَ ربِّك، وتعلّم من نبيك

(١) رواه مسلم.

(٢) هود: ١٥، ١٦.

ماذا كان يقول وهو يؤدي أجل الأعمال وأعظمها. كان يرتجز في حفر الخندق - وهو ينقل التراب - برجز عبد الله:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إنه لا يحب أن ينسب عملاً صالحاً إلى نفسه، وإنما ينسبه إلى فضل ربه. هذا خلق القرآن يتخلق به رسول الله ﷺ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (١)

القرآن يربي المؤمنين دائماً أن ينسوا الفضل لله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (٢)

بهذا السلوك النقي تجد العون من الله على تطهير قلبك من هواجس الشرك ولوثة الرِّياء ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

قف من نفسك دائماً موقف المؤدب المصحح لإرادتها، واحذر أن تباهي الناس بعمل أو تماري الفقهاء بعلم، أو تجادل إلا بالتي هي أحسن.

وابتغ بعلمك وعملك وجه ربك. قال ابن مسعود رضي الله عنه: « لا تعلموا العلم لثلاث: لثماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله؛ فإنه يبقى ويذهب ما سواه »

(١) الأعراف : من الآية ٤٣ .

(٢) الأنفال : من الآية ١٧ .

(٣) التغابن : من الآية ١١ .

اعمل العمل لوجه ربك فإن وجدت ثناءً من الناس عليك فاحمد الله، وانشد - دائماً - رضى الله دون أن تغتر بمدح أو ثناء. عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ. قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ» ^(١)

أخي المسلم:

ابداً دائماً بنفسك، أدبها بأدب الله، وعلمها القرآن وعودها على التمسك به؛ حتى تتخلق بخلق رسول الله، «ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاحترام من معلم الناس ومؤدبهم»

﴿ رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢)

الإخلاص أصل ثابت لكل خلق طيبٍ مُتَقَبَلٍ عند الله مثمر في أحوال الناس، ولا أرى شيئاً يعظم به الأجر ويعلو به الذكر مثل الأخلاق النابعة من معرفة الله وابتغاء مرضاته، التي من أجلها بُعث الرسل جميعاً، وجاء حاتمهم ﷺ ليتمم مكارمها: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ^(٣)، وكما يدل ضوء الفجر الصادق على الشمس

(١) رواد مسلم.

(٢) البقرة: من الآية ٢٨٦.

(٣) مسند الشهاب القضاعي، وفي رواية: «إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأعمال» الطبراني في المعجم الأوسط، وقال: لم يرو هذا الحديث عن يوسف بن محمد إلا عمر بن إبراهيم، تفرد به: صالح بن بشر.

- وإن اختفت وراء الحجب - تدل الأخلاقُ على شأن صاحبها وإن حجبت عن الأعين أبعادُ الزمان أو المكان.

وقد استدلل هرقل على صدق الرسالة المحمدية، استدلل عليها بما سمع عن أخلاق صاحبها ﷺ ولم يره.

روي البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - أن أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ - وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ - فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادًّا فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِبَابِلِيَاءَ، فَدَعَاَهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاَهُمْ وَدَعَا بَنِي تَرْجُمَانَهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ: أَذَنُوهُ مِنِّي، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ

ثُمَّ قَالَ: لَتَرْجُمَانَهُ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَّبَنِي فَكَذَّبُوهُ. يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَاللَّهِ، لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَّبْتُ عَنْهُ.

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ - قَطُّ - قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟ قُلْتُ: بَلْ ضَعْفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخِطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَعْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَتَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ، لَا تَذَرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةً أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالِكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَا أَمْرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَاةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلِ قَبْلِهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَشَرَّافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضَعْفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضَعْفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ.. وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ.. وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخِطَةً لَدَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ.

وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا.. وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِنَهْيِكُمْ عَنِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَمِّلِكَ مَوْضِعَ قَدَمِي هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَتَحَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَعَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ»^(١)

إنها أخلاق الرسول ﷺ تمتد تأثيرها في الناس ويكون لصاحبها شأن أي شأن

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢)

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِيمَانِ، فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِيمَانُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(٣)

وفي الحديث المتفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «لَمْ يَكُنْ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ

(١) رواد البخاري.

(٢) القلم : ٤ .

(٣) رواد مسلم.

أَخْلَاقًا» (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ. وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: الْفَمُّ وَالْفَرْجُ» (٢)

أخي القارئ:

هل عرفت ميزان البر والإثم؟ «البرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ» ولكن ما البرُّ حتى يتضح ميزانُ الخُلُقِ أمام عينيك؟

البرُّ: يُراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة. الباطنة: كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. والظاهرة: كإنفاق الأموال فيما يحبه الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر على الأقدار ولقاء العدو.

وقد يكون جوابُ الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث النَّوَّاسِ: «البرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ» شاملاً لهذه الخصال كلها؛ لأنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ قد يُراد به التخلُّقُ بأخلاق الشريعة، والتأدبُ بأداب الله التي أدب بها عباده في كتابه، كما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقِي عَظِيمٍ﴾ (٣)، وقالت عائشة - رضي الله عنها: «كَانَ صلى الله عليه وسلم خُلُقَهُ الْقُرْآنَ» يعني أنه يتأدب بأدابه؛ فيعمل بأوامره، ويتجنب نواهيه، فصار العمل بالقرآن له خُلُقًا كالجبل لا يفارقه، وهذا من أحسن الأخلاق وأشرفها وأجملها، وقد قيل: ((إن الدين كله خُلُقٌ)).

(١) رواد البحاري.

(٢) رواد الترمذي.

(٣) القلم : ٤ .

إن التمسك بكتاب الله ﷻ والافتداء بنبيه ﷺ هو الذي يوصلك إلى أفضل الأخلاق وأحسنها، والرسول ﷺ ضامن بيت في أعلا الجنة لمن حسن خلقه. وأحب الناس إليه ﷺ وأقربهم منه مجلساً يوم القيامة أحسنهم أخلاقاً.

فلنمض بعد ذلك في مفردات الأخلاق بعد وقوفنا على الأمر الكلي، وإدراكنا لمفهوم الأخلاق وما يعنيه قول عائشة - رضي الله عنها - : « كان خلقه ﷺ القرآن » نأخذ الآية من القرآن نتأمل فيها، ثم نرى بياها العملي من سلوك رسول الله أو قوله أو إقراره؛ لتزن أمورنا ونصحح واقعنا ندعو الناس على بصيرة.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ

يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ ^(١)

